مقابس من كتاب معجم الأدباء ليـــاقوت

للأستاذ عبد الخالق عمر

الأستاذ بدار العلوم

أقول مقابس وأخالف القائلين : مقتبسات ، ذلك أنهم يقولون : ما جرى على اسمى الفاعل والمفعول مما بدئ بميم زائدة فقياسه التصحيح للمذكر إن كان عاقلاً وللمؤنث إن كان غير عاقل ، واستثنوا من ذلك ماجاء من كلام العرب مكسراً مثل : ميمون ومشئوم وميسور ، إلى ذلك مما يكون سبع كلمات أو يزيد ، ولست أدرى وربك ما هذا التحكم الصرفي بعد أن جاء هـذا العدد مجموعاً جمع تكسير ، وربما قالوا : إنه جاء في الشعر والضرورة أساغته ؛ ولكن مواضع جاءت فى كتاب الله الكريم ، وجاء فى منثور العرب مطاليق ، وإذن فلا ضرورة لهذا الفرض الصرفى ، وبهذه المناسبة أستطرد لذكر أفعال إذا أسندت دلت على قيام الحدث بالمسند إليه من غير عمل منه ولا تأثير له فى غيره مثل : اخضر وما ماثلها من أفعال الألوان ومثل : غص وشل وشرق فأقول : إن مثل هذه الأفعال ليس لنا أن نبنيها للمفعول فإن وجودها فى الفاعل لم يكن من غيره ، ومثل هـذا فاعل اصطلاحا لا حقيقة ، والبناء للمفعول يقتضى مؤثراً فى المفعول ، وهذه لا مفعول لها تقتضيه فأولى بنا أن نجعلها فى كل استعمال لها مبنية للفاعل إلا إذا كانت متعدية . ولعلى مصيب فيما قلت والله أعلم بالصواب

رجع القول الى معجم الأدباء

كنت أسلفت القول فى ذكر طائفة من الشذاذ فى اللغة المتقعرين فيها ، وهأنذا أتبعه بذكر أمثلة أخرى وأبتدئ بذكر :

أحمد بن محمد بن ثوابة

أحمد بن محمد بن ثوابة بن خالد الكاتب أبو العباس ، قال محمد بن إسحق النديم : هو أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس أبو العباس الكاتب ، أصلهم نصارى ، وقيل إن يونس يعرف بلبابة وكان حجاماً ، وقيل : أمهم لبابة ، ومات أبو العباس سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقال الصولى : مات فى سنة ثلاث وسبعين ، قال : وحدثنى أبو سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاذ قال : كان بين على بن الحسين وبين أبى العباس بن ثوابة منازعة فى ضيعة فاجتمعا فى مجلس بعض الرؤساء وأحسبه عبيد الله بن سليمان ، فرد على بن الحسين مناظرة أبى العباس إلى أخيه أبى القاسم ابن الحسين فناظر أبا العباس فأقبل أبو العباس يهاتره ويطنز به[1] ، وقال فى جملة قوله : من أنتم ؟ إنما نفقتم بالبذيذة[2] ، قال : فالتفت على بن الحسين إلى صبى كان معه كأنه الدنيا المقبلة فأخذ بيده وقام قائماً فى موضعه وكشف عن رأسه وقال بأعلى صوته : يامعشر الكتاب قد عرفتمونى وهذا ولدى من فلانة بنت فلان الفلانى وهى منى طالق الحرج[3] والسنة على سائر المذاهب إن لم يكن هذا الشرط الذى فى أخدعى شرط جده فلان المزين ، لا يكنى عن جد ابن ثوابة . قال : فاستخذل أبو العباس ولم يحر جواباً ولا أجرى بعد ذلك كلاماً فى الضيعة وسلمها من غير منازعة ولا محاورة

قال : وكان أبو العباس من الثقلاء البغضاء وله كلام مدون مستهجن مستثقل ، منه : علىّ بماء الورد أغسل فمى من كلام الخاجم ؛ ومنه : لما رأى أمير المؤمنين الناس قد تدارسوا وتدقلوا وترنسموا وتذوددوا تدسقن[4]

---

(١) يسخر ويهزأ ، وبابه نصر

(٢) نفقتم : ذاع صيتكم ، والبذيذة : التقشف وسوء الحال

(٣) أى الحرمة

(٤) حاولت جهدى أن أوفق إلى معانى هذه الكلمات وقلبتها على وجوه من النطق ، بغرض أنها ملحقات بالرباعى وبغرض أنها منحوتة من كلمتين ، حاولت كل هذا فلم أوفق وما أشبهها بتلك الكلمات التى كان بشار يقولها فاذا أحرج وسئل قال : اسم حمار أو جارية عندى

ولابن ثوابة أخبار كثيرة تؤيد ذكره بين أسماء الشذاذ الذين نذكرهم ، منها ما يرتبط بالألفاظ ، ومنها ما يرتبط بالمعاملة ؛ ونكتفي بذكر ما ذكرنا ، ونأتي على طرف من أخلاقه ومعاملاته نتبين منها ما نريد إثباته له

قال الصولى : كانت بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير وبين العباس أحمد ابن محمد بن ثوابة وحشة شديدة لأسباب ، منها أشياء جرت فى مجلس صاعد فى آخر أيامه ، قد حدثنى رشيق الموسوى الخادم — وما رأيت خادماً أعقل منه ولا أكتب يداً — قال : كنا فى مجلس صاعد فسأل عن رجل ، فقال أبو الصقر : قد كان أننى — يريد نفى — فقال ابن ثوابة : فى الحرء . فسمها ، فقال أبو الصقر : كيف تكلم مَن حقه أن يشد ويحد ؟ فقال ابن ثوابة : من جهلك ، أنك لا تعلم أن من يشد لا يحد ، ومن يحد لا يشد . ثم ضرب الدهر من ضربه ، فرأيت ابن ثوابة قد دخل إلى أبي الصقر بواسط ، فوقف بين يديه ثم قال : أيها الوزير « لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » . فقال له أبو الصقر : « لا تثريب عليكم » يا أبا العباس ، ثم رفع مجلسه وقلده طساسيج [1] بابل وسورا وبرسما ، فضاعف وزاد فى الدعاء له ، فما زال والياً إلى أن توفى فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين . هكذا ذكر الصولى والأول منقول من كتاب محمد بن إسحاق وهذا أولى بالصواب

قال الصولى : وحدثنى الحسين بن على الكاتب قال : كان أبو العيناء فى جملة أبي الصقر ، قال : وكان يعادى ابن ثوابة لمعاداة أبي الصقر ، فاجتمعا فى مجلس بعقب ما جرى بين أبي الصقر وبين ابن ثوابة فى مجلس صاعد فتلاحيا ، فقال له ابن ثوابة : أما تعرفنى ؟ قال : بلى أعرفك : ضيق المطن ، كثير الوسن ، قليل الفطن ، خار [2] الذقن ، قد بلغنى تمديك على أبي الصقر ؛ وإنما حلم عنك لأنه لم ير عزاً فيذله ، ولا علواً فيضعه ، ولا حجراً فيهدمه ؛ فعاف لحمك أن يأكله ، وسهك [3] دمك

---

(١) الطساسيج (جمع طسوج) : الناحية

(٢) خار : من خر يخر لوجهه ، كناية عن الذل والضعة

(٣) سهك الدم : خبثت ريحه

أن يسفكه ، فقال له : اسكت ، فما تسابّ اثنان إلا غلب ألأمهما . قال أبو العيناء : فلهذا غلبت بالأمس أبا الصقر فأسكته

حدثنا أبو العباس التميمي : حدثنا جحظة في أمالية قال : حضرت مجلس أبي العباس ثعلب وعنده جماعة من أصحابه وحضر أحمد بن علي المادرائي فسأله عن أبي العباس بن ثوابة وقال له : متى عهدك به ؟ فقال : لا عهد ولا عقد ولا وفاق ولا ميثاق ، فقال له ثعلب : عهدي بك إذا غضبت هجوت فهل من شيء ؟ فأنشد

بني ثوابة أنتم أثقل الأمم ... جمعتم ثقل الأوزار والتخم
أهاض حين أراكم من بشامتكم ... على القلوب وإن لم أوت من بشم (١)
كم قائل حين غاظته كتابتكم ... لو شئت يا رب ما علمت بالقلم

فقال ثعلب : أحسنت والله في شعرك وأسأت إلى القوم . وعن أبي الفرج الأصبهاني حدثني أبو الفضل العباس بن أحمد بن محمد بن ثوابة قال : قدم البحتري النيل على أحمد بن علي الاسكافي مادحاً له فلم يثبه ثواباً يرضاه بعد أن طالت مدته عنده فهجاه بقصيدته التي يقول فيها :

ما كسبنا من أحمد بن علي ... ومن النيل غير حمى النيل (٢)

وهجاه بقصيدة أخرى أولها :

قصة النيل فاسمعوها عجابه ...

فجمع إلى هجائه إياه هجاء بني ثوابة وبلغ ذلك أبي فبعث إليه بألف درهم وثياباً ودابة بسرجها ولجامها فرده وقال : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ! فكتب إليه أبي : أما الأساءة فمغفورة والمعذرة مشكورة والحسنات يذهبن السيئات ، وما يأسو جراحك مثل يدك ، وقد رددت إليك ما رددته عليّ وأضعفته فان تلافيت ما فرط منك أثبنا وشكرنا وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا . فقبل ما بعث به وكتب إليه : كلامك والله أحسن من شعري ، وقد أسلفتني

(١) أهاض : تعتريني الهيضة : وهي قيء وكرب وإسهال ، وهذا مايسمونه « الكارة » . بشامتكم : تفلكم . البشم : التخمة

(٢) النيل (غير نيل مصر) : بجهات بغداد

ما أخجلني ، وحملني ما أثقلني وسيأتيك ثنائي . ثم غدا عليه بقصيدة أولها :

ضلال لها ! ما ذا أرادت من الصد ؟

وقال فيه بعد ذلك :

برق أضاء العقيق من ضرمه

وقال فيه أيضاً :

إن دعاه داعي الهوى فأجابه

فلم يزل أبي يصله بعد ذلك ، وتتابع بره لديه حتى افترقا

ولابن ثوابة نثر جيد ، منه : من حق المكاتبة أن يسبقها أنس وينعقد قبلها ود ، ولكن الحاجة أعجلت عن ذلك ، فكتبت كتاب من يحسن الظن إلى من يحققه

ومن فصل له إلى عبيد الله بن سليمان : لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوت من عدم وسيلة ، وغلة الصادي تأبى له انتظار الوراد وتعجل عن تأمل مابين الدير والواد ، ولم أزل أترقب أن يخطرني بباله ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن برح الخفاء وكشف الغطاء وشمت الأعداء ، وإن في تخاني وتقدم المقصرين لآية للمتوسمين والحمد لله رب العالمين .

وله توقيع ظريف كتبه فى إحدى الرقاع التى قدمت له فقد روى هلال ابن المحسن فى كتاب الوزراء ما يأتى : حدث على بن سليمان الأخفش قال : ذكر لى المبرد أنه كان فى يوم نوبة له عند أبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة حتى دخل عليه غلامه ، وفى يده رقعة البحترى فقرأها أبو العباس ووقع فيها توقيعاً خفيفاً وأمر بإصلاحها فأصلحت وأعيدت إليه . قال المبرد : فرمى بها إلى فإذا فيها :

اسلم أبا العباس وابق فلا أزال الله ظلك
وكن الذي يبقى لنا ونموت حين نموت قبلك
لى حاجة أرجو لها إحسانك الأوفى وفضلك
والمجد مشترط عليك قضاءها والشرط أملك
فلئن كفيت ملمها فلمثلها أعددت مثلك

قال : وإذا قد وقع أبو العباس : مقضية والله الذى لا إله إلا هو ، ولو أتلفت

المال وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — : ما شئت منبسطاً ، وثق بما أنا عليه لك منتبطاً إن شاء الله تعالى .

* * *

هذه طائفة من أخبار ابن ثوابة تنبيء فى الجملة عن شيء من حاله التى أشرت إليها ، كما أنها تدلنا على أن له من القول البالغ والنثر العظيم مقداراً يعد به فى زمرة الكتاب المدودين

وكما حدثتنا هذه الشذرات عن هذا فإنها أيضاً تعرفنا أن أناساً كثيرين يحسدونه على هذا النوع من النبوغ ، ويخيل إلى أن خلق المنجهية الذى كان يتمسك به والتطرف فى الكلام يفض عنه من حوله ؛ والحق أن الخروج عن المألوف وجفاف الطبع حائل بين الشخص ومجالسيه ، وإن شئت فقل وأقاربه وأهله فإذا انضم إلى ذلك وضاعة نسبه وصغار أصله كانت الطامة ؛ ومن هذا الذى ذكرت يتضح رأيى فيه كما يدور فى خلدى أنه كاتب أديب فحسب بمعنى أنه بعيد عن الحياة الاجتماعية فى عصر يتعاظم فيه كل فرد بدراية الأدب والعلوم المعربة ولو إلى درجة قليلة وترى هذا يدور فى نثرهم ونظمهم وحديثهم فمن لم يماثلهم ير نفسه فى واد بعيد عن معاشريه ولا يسعه إذ ذاك إلا أن يظهر بمظهر التكبر على الناس المتعالى عليهم ومن هنا يجيء الظنون فى الشخص تترى

وقد دعانى إلى كتابة ما سلف أن كثيراً من الناس صغروا من قدره وشوهوا من عقله وجعلوه طفلا لا يعى بما نسبوه إليه من البعد عن أحوال الحياة وصوروه رجلاً مضحكاً لما فيه من بله وجهل فاضحين . وإليك شيئاً مما حدثوا به عن ابن ثوابة ، قال ياقوت : قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين[1] : حدثنا أبو بكر الصَّيْمرى قال : حدثنا ابن سمكة قال : حدثنا ابن محارب قال : سمعت أحمد ابن أبى الطيب يقول : إن صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبى العباس يكنى أباعبيدة قال له ذات يوم : إنك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسى وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء ، وقرأت أقليدس

(١) الوزيران : ابن عباد وابن العميد

وتدبرته. فقال ابن ثوابة : وما أقليدس ومن هو ؟ قال : رجل من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمنية يشحذ الذهن ويدقق الفهم ويلطف المعرفة ويصفى الحاسة ويثبت الروية (وما زال أبو عبيدة يرغبه حتى خضع لقوله وأحضر له رجلاً اسمه قوريرى يعلمه ذلك)

قال ابن أبي الطيب : فكتبت لابن ثوابة كتاباً أستعلم فيه عن الحادث (وهنا ذكر ياقوت كتاب أبي الطيب ورد ابن ثوابة عليه . والرسالة الأولى قصيرة والرد طويل شرح فيه ابن ثوابة حاله مع قوريرى النصرانى ثم مع آخر مسلم يدعى أبا يحيى ولم أر فائدة كبرى فى الإتيان بنصها غير أنى أورد منها شيئاً يجلو لنا موقف ابن ثوابة الذى من أجله رمى بالجهل والنباوة) وذلك عندما اجتمع به قوريرى فى المرة الأولى وأبو يحيى في الأخرى

يقول ابن ثوابة فى وصف قوريرى : فأتانى (الضمير لأبى عبيدة) بشيخ ديرانى[1] شاخص النظر منتشر عصب البصر طويل مشذب[2] محزوم الوسط متزمل فى مَسْكَةٍ[3] فاستعذت بالرحمن إذ تزغنى الشيطان ... ثم يقول :

قال (يريد قوريرى) : فأحضرنى دواة وقرطاساً ، فأحضرتهما فأخذ القلم ونكت نكْتة نقط منهـا نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الدرّة فزمزم[4] عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله وأقبل علىّ وقال : أيها الرجل ، إن هذه النقطة شيء لا جزء له ، فقلت أضللتنى ورب الكعبة؛ وما الشيء الذى لا جزء له ؟ فقال : البسيط ، فأذهلنى وحيرنى وكاد يأتى على عقلى لولا أن هدانى ربى لأنه أتانى بلغة ماسمعتها والله من عربى ولا عجمى ، فقلت أنا : وما الشيء البسيط ؟ فقال : كالله والنفس ، فقلت له : إنك من الملحدين ؛ أتضرب بالله الأمثال والله يقول : « فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، وأعوذ بالله من الحين وأبرأ إليه منكم ومما تلحدون والله ولى أمير المؤمنين إنى برىء مما تشركون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم قال ، فقال لى آخر من

(١) نسبة إلى الدير (٢) مهذب
(٣) قطعة من جلد (٤) تكلم بلا صوت

الجالسين أن عندى مسلماً يتقدم أهل هذا العلم ، فقلت ائتنى به ، فأتانى برجل قصير دحداح[١] آدم مجدور الوجه أخفش[٢] العينين أجلح[٣] أفطس[٤] سيء النظر قبيح الزي ... إلى أن قال يحدث هذا الجديد المكنى بأبى يحيى : إن النصرانى نقط نقطة أصغر من سم الخياط وقال لى إنها معقولة كربك الأعلى ، فوالله ما عدا فرعون وكفره وإفكه . قال أبو يحيى : إنى أعفيك من النقطة لعن الله قويرى ، وما كان يصنع بالنقطة ؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة ، ونازعتنى نفسى معالجته بغليظ العقوبة ثم استعطفنى الحلم إلى الأخذ بالفضل — ولما جيء لهذا الثانى بما طلب من الأدوات خط خطاً وقال لى غير متعاظم إن هذا الخط طول بلا عرض ؛ فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت له : قاتلك الله أندرى ما تقول ؟ تعالى صراط ربى المستقيم عن تخطيطك وتشبيهك وتحريفك وتضليك إنه لصراط مستقيم وإنه لأحد من السيف وأدق من الشعر

ثم قال بعد لومه وتأنيبه وقذفه بهجر القول : أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تدل عليه وترشد إليه إنى برئ من الهندسة ومما تسرون وما تعلنون ولبئسما سولت لك نفسك أن تكون من خزنتها (جهنم) بل من وقودها وإن لك فيها لأنكالا وسلاسل وأغلالا وطعاما ذا غصة — يقول بعد ماسبق : ثم أخذت قرطاساً وكتبت بيدى يميناً آليت فيها بكل عهد مؤكد وعقد مردد ويمين ليست لها كفارة أنى لا أنظر فى الهندسة أبداً ، وأكدت بمثل ذلك على عقبي وعقب عقبي لا تنظروا فيها ولا تتعلموها ما دامت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة لميقات يوم معلوم اه بتصرف

قال ياقوت فى آخر ترجمة ابن ثوابة — وفى هذا القول ببدى رأيه فى ابن ثوابة متصوراً أن كل ما جاء فى الرسالتين سالفتى الذكر من أوضاع الكاتبين قال :

---

(١) قصير
(٢) سيء البصر نهاراً
(٣) انحسر شعره عن جانبي رأسه
(٤) صفة للأنف الذى ليس دقيقاً

قال عبد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب : لا شك أن أكثر ما فى هذه الرسالة مفتعل مزور وما أظن برجل مثل ابن ثوابة — وهو بمكانة من العلم بحيث تلقى إليه مقاليد الخلافة ، فيخاطب عنها بلسانه القاصى والدانى ، ويرتضيه العقلاء والوزراء بحيث لا يرون له نظيراً فى زمانه فى براعة لسانه ، تولى كتابة الإنشاء السنين الكثيرة — أن يكون منه هذا كله

ثم قال : فأما ماتقدم من حديث ابن ثوابة فهو غاية فى التجلف ، والرجل كان أجل من ذلك ، وإنما أتى إما من جهة احمد بن أبى الطيب لأنه كان فيلسوفاً ، وكان ابن ثوابة متمجرفاً كما ذكرنا ، فأخذ يسخر منه ليضحك المعتضد ، فإن أحمد بن الطيب كان من جلساء المعتضد ؛ وإما أن يكون أبوحيان جرى على عادته فى وضع ما أكثر من وضعه من مثل ذلك والله أعلم

عبد الحالق عمر